(٢) عباس محمود العقاد
لماذا انتحرت بدرية ـ بعد وفاته؟!

منتهى القسوة أن يصاحب رحيل عظيم من عظماء هذه الأوراق.. وبما خلفوه وراءهم من أعمال عظيمة.. انتحار فتاة حزنا عليه وعلى فراقه.. وقد ظل لغز انتحارها.. بل وتفاصيل حياتها وملامح شخصيتها لغزا حائرا.. حتى بعد رحيل العقاد بسنوات.!

والتفاصيل كثيرة ومحزنة أيضا.. وتدعو للرثاء.. ذلك لأنها ارتبطت فى الواقع وكما سجل ذلك المؤرخون والعديد من تلاميذ عباس محمود العقاد.. برحيل شخصية تركت معالمها وآثارا فكرية وأدبية لازالت أصداؤها تهز أركان عالمنا العربى حتى الآن.

لقد ارتبط العقاد فى حياته بنساء كثيرات.. برغم أنه لم يتزوج.. وكان ارتباطه بهن ارتباط الأستاذ بتلميذاته إلا قليلا منهن.. وقعن فى حبه.!!

وسيرة هذا العملاق العظيم.. بل وكتبه فيها الشىء الكثير عن هؤلاء النسوة.. إلا امرأة وحدة وفتاة واحدة أيضا..

الأولى ادعت أنها تزوجت العقاد.. والثانية صرخت فى فضاء الكون قبل انتحارها بأنها ابنة عباس العقاد.!!

ولعل سبب تمسكنا بالحديث طويلا وبتفاصيل كثيرة عن هذه السيدة وتلك الفتاة التى ماتت منتحرة.. يرجع فى الأصل إلى ارتباط حقيقتهما بيوم رحيله.. بل وبالساعات الأخيرة فى حياته.!

ومما يؤكد لدينا ذلك.. تلك الصورة التى كتبها أنيس منصور معبرا ولو بشكل غير مباشر عما سبق وقلناه.. عندما قال .. "وعلى السلالم تعثرت سيدة قد ارتدت الملابس السوداء وتبكى وتلطم خديها، وتمسح وجهها فى عتبات السلالم.. وتدق الباب الذى أغلق وتقول: لابد أن أراه.. انتهت الدنيا.. لا دنيا بعده.. لا حياة ولا موت.. يا خسارة.. يا رحمتك يارب.. أين هو.. أراه؟

وفتحوا الباب للسيدة "فوزية".. وأدخلوها عليه وراحت تتمرغ فى الأرض، وتخرج الأحذية من تحت السرير، وتضعها على رأسها.. وتقول: يا أرحم الناس.. من الذى يعالجنى فى إنجلترا مرة أخرى؟!.. ياليت ساقى قد انقطعت.. ياليت عمرى كان الله قد أخذه وأعطاه لك.. ما فائدة العمر بعدك.. ألف رحمة.. الجنة لك. يا عباس يا عظيم.. يا سيد الناس.. وأخرجوها وهى تقاوم وأنزلوها السلالم وأغلقوا الباب..".

وفى فقرة أخرى قال عن بقية حكاية هذه السيدة وتلك الفتاة التى انتحرت: ".. وفجأة تعالت الأصوات والصرخات. لقد عادت السيدة فوزية ومعها ابنتها بدرية.. فى السابعة عشرة من عمرها.. ودخلت بدرية وألقت بنفسها عليه. (يقصد على جثمان مولانا العقاد).. وراحت تبكى، وتصرخ فى حالة جنونية. وانكفأت على الأرض تلعق التراب تحت قدميه.. ثم تلعق أحذيته واحدا واحدا.. ثم تكشف عن قدميه وتقبلها وتصرخ: أين أنت يا بابا. أين ذهبت؟!. ثم هجمت على الزجاجات التى كان يتعاطاها وراحت تصبها فى حلقها وراحت تبتلع كل الحبوب.. ومزقت ملابسها وشعرها، وألقت بحذائها من النافذة. ونزعت من الشماعة بيجامة الأستاذ. وراحت تلف نفسها بها.. ثم أمسكت حذاء له ووضعته فى قدميها، واندفعت من الباب إلى السلم تتدحرج عليه وينزف الدم من رأسها.. ثم تختفى".

ونعرف من تفصيل بقية قصة هذه الفتاة التى قالت إنها ابنة مولانا عباس العقاد.. أنها ماتت منتحرة حين بدأوا فى إجراءات نقل جثمانه إلى القطار المتجه إلى مسقط رأسه ومكان مولده.. إلى مدينة أسوان.!

معنى ذلك أن روحها ربما عانقت روح العقاد وهى فى طريقها إلى السماء.. وكان قد سبقها إلى عالم الآخرة.. ربما بساعات قليلة. ولا نعرف السبب فى اختيار هذا التوقيت بالذات.!

ولولا إشفاق تلاميذ العقاد على أنفسهم أولا ثم على أستاذهم لكانت حكاية هذه الفتاة قد استقرت بين أوراقهم حين كتبوا مذكراتهم عن العقاد وبالتالى كانت ستصبح من أكثر الحكايات المشوقة بالنسبة لعلاقة مولانا العقاد بالنساء وبالفتيات أيضا. وبصرف النظر عن موقع أو أهمية.. أو شخصية هذه المرأة أو تلك.

كما هو معروف فإن الأسرار فى حياة الكبار.. دائما تكون من أهم مطالب الباحثين على الدوام.. أملا فى وضع نهايات مقنعة لما يسمونه على سبيل الإشاعة أو على سبيل اليقين.. وقد تعرض العقاد وقصة الفتاة المنتحرة يوم رحيله إلى شىء من البحث الجدى على أمل الوقوف على تفاصيلها.. وإن كان الذى أذيع عن هذه القصة قد تأخر لعدة أشهر.. وقد نجحت إحدى المجلات المصرية الأسبوعية فى نشر موضوع بالصور عن هذه القصة.. ثم حدثنا الدكتور عبد اللطيف عبد الرحيم رئيس جمعية العقاد الأدبية السابقة بعد نشر هذا الموضوع بأكثر من ثلاثين عاما مؤكدا كل ما جاء به من حقائق. وفى حديثه إلينا أكد عدة

حقائق كان من أهمها أن العقاد بالفعل كان يتبنى طفلة اسمها بدرية. وكان عمرها آنذاك ٨ أشهر.. وأنه كان يسعده كثيرا أن تناديه باسم "بابا". كما أن هناك اثنين من أقرب تلاميذ العقاد كانا وحدهما يعرفان هذه الأسرار وهما الأديب الكبير الراحل محمد فريد أبو حديد والشاعر صديق العقاد الشخصى محمد طاهر الجبلاوى.. وقد أكد هذان الشاهدان قصة هذه الفتاة وقصة علاقتهما الخاصة بمولانا العقاد.

* * *

وأصل حكاية الفتاة بدرية التى انتحرت يوم رحيل العقاد.. هى أن مولانا كان يقيم فى بداية حياته فى ضاحية العباسية البحرية.. فى بيت متواضع وكان ذلك تقريبا فى عام ١٩١٥.. حيث كان يعمل العقاد ذو انسادسة والعشرين ربيعا معلما للترجمة واللغة العربية فى مدرسة النيل الإعدادية بحى الظاهر.. وفى عام ١٩٣٥ تعرض العقاد لضائقة مالية شديدة بعد أن خرج حزب الوفد من الحكم عام ١٩٢٨.. وتوالت على مصر حكومات الأقلية التى كان دائما ما يهاجمها العقاد.. وعندما هاجم وزارة توفيق نسيم باشا.. أعلن الوفد فصله وقطع مرتبه الذى كان يبلغ آنذاك ٣٠ جنيها. فوقع العقاد فى هذه الضائقة المالية. وفى هذه

الظروف الصعبة.. عرضت عليه سيدة كانت تقيم بجواره فى منزله بالعباسية بأن تساعده فى هذه الظروف.. وبالفعل أقرضته مبلغ ٦٠٠ جنيه، ويقال فى ذلك إنها من أجل توفير هذا المبلغ.. رهنت له قطعة من مصاغها الذهبى. وكانت تلك السيدة هى أم الطفلة التى أنفق عليها كابنته تماما. وكانت بدرية تتردد على العقاد وهو يحضر لها كل طلباتها. كما كان يعطيها مصروفا يوميا!

أما حكاية فوزية.. تلك السيدة التى حكى لنا عنها من قبل أنيس منصور.. فكانت أخت الفتاة بدرية التى انتحرت بعد رحيل العقاد.

وقد جاءت آنذاك لتسأل عن أية وصية تركها مولانا بعد رحيله لابنته أو لطفلته أو لبدرية.

وحين نترك مجال الحكايات.. ونعود أدراجنا للبحث عن أهم الأحداث التى عايشها العقاد فى أيامه الأخيرة.. بل وفى الساعات التى رحل من بعدها.. كان لابد لنا من أن نلقى أولا بعض الأضواء المبهرة وغير المبهرة على بدايات حياة هذا العملاق.. وفق المنهج العام الذى ابتغيناه من قبل مع عظماء هذه الأوراق..

وعندما بحثنا عن مصادر موثوق بها للحديث عن تلك البداية.. عثرنا على كلمات سجلها مولانا العقاد بنفسه فى أحد كتبه وفيها تصوير دقيق لمسيرة حياته.. حيث قال:

"ولدت فى أسوان يوم ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩، ولى أخوة أشقاء وغير أشقاء.. فقد كان والدى متزوجا قبل والدتى. ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج من أمى.

وكبير أشقائى أحمد.. كان يعمل سكرتيرا لمحكمة أسوان، وعبد اللطيف هو تاجر. ولى شقيقة واحدة نحبها جميعا وهى متزوجة وتعيش فى القاهرة إلى جوارى. أما إخوتى غير الأشقاء فهم جميعا أكبر منى سنا، وبعضهم يعيش فى القاهرة والبعض الآخر بأسوان.

وقد تدرجت فى المدارس. ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبى عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤، وكان عمرى إذ ذاك ١٥ سنة. وكانت وظيفتى فى مديرية قنا.. ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتى لأننى لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد، ثم نقلت إلى الزقازيق. ثم كنت أول من كتب فى الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين. ثم سئمت وظائف الحكومة، وجئت إلى القاهرة وعملت بالصحافة. وأخيرا عينت بمجلس الفنون والآداب كما عينت بالمجمع اللغوى..".

ولقد حاول العديد من النقاد والصحفيين الاجتهاد فى إضافة بعض المعلومات عن نشأة عباس العقاد.. وهى كما سوف نرى لم تخرج كثيرا عما سجله العقاد نفسه والذى كتب لنا أيضا فى أوراقه الخاصة عن أصل عائلته.. ونسبه ونسب أمه التركية الأصل.. قائلا: "هل يعرف أحد من أين لى باسم "العقاد"؟! لا أحد طبعا.. وغير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عنى.. أشياء قد تبدو غريبة، لكننى أقولها فى هذا المقام.

أما اسم العقاد، فأذكر أن جدى لأبى كان من أبناء دمياط، وكان يشتغل بصناعة الحرير ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزا لنشاطه، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم "العقاد" أى الذى يعقد الحرير.. والتصقت بنا وأصبحت علما علينا.."

وعندما يصل العقاد بحديثه عند منعطف حديث الأسرة يقول عن والده: "وإنما أتمثل أبى الإنسان فى الصورة التى رأيتها ألفى مرة بل أكثر من ألفى مرة.. لأننى كنت أراها كل يوم منذ فتحت عينى على الدنيا إلى أن فارقت بلدتى من بعد اشتغالى بالوظائف الحكومية.

وتلك هى صورته على مصلاه. يؤدى صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار. ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ويعقبها بتلاوة الدعوات.

وكان يؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها. ولكن جلسته فى الصباح الباكر هى التى انطبعت فى ذاكرتى إلى هذه الساعة، لأنها كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح.."

ولم ينس العقاد فى السياق نفسه أن يحدثنا عن وظيفة والده.. فذكر أنه كان يعمل أمينا للمحفوظات بإقليم أسوان. وكانت مكتبته المصدر الأول لمعارفه التى استزاد منها على مر السنين. حتى بلغ ما قرأه مولانا وفق تقدير النقاد حوالى ٦٥ ألف كتاب فى مختلف فروع المعرفة!!

وأما عن أمه ونسبها فيقول: "لقد كانت أسرة أمى من أبويها جميعا كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار بكر.. وياللعجب، فإن أجداد أمى جميعا قد تزوجوا فى السودان، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها فى الفرقة الكردية التى توجهت إلى السودان بعد حادث إسماعيل بن محمد على الكبير. وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى أسوان وهو جد أمى لأبيها، وأبوها هو محمد أغا الشريف".

وبخلاف ذلك. هناك عشرات من الموضوعات الخاصة بالعقاد والتى أشار لها فيما سجله فى معظم كتبه والتى لم تأخذ برغم ذلك شكل المذكرات أو السيرة الذاتية المتكاملة.!

والمؤكد أن معظم المؤرخين والنقاد.. قد نقلوا عن العقاد ما سجله من حياته وحياة أسرته.. وإن حاول بعضهم الاجتهاد بإضافة معلومات أخرى عن نسبه وأصله وتاريخ ميلاده.. فقالوا: "إنه ولد فى مدينة أسوان فى ٢٨ يونيه عام ١٨٨٩ وتوفى ١٢ مارس عام ١٩٦٤.. مع أن الصحيح أنه توفى فجر اليوم الثانى عشر من مارس أى فى اليوم الثالث عشر من الشهر نفسه. وكان ترتيبه الثالث بين أحد عشر ابنا لأبيه الموظف الذى تزوج ثلاث مرات.!!

ولو سمحنا لأنفسنا بالاطلاع على أوراق بعينها سطرها الزمن فى كتابه الضخم سواء عن العظماء أو عن غيرهم.. سوف نكتشف أن حياة مولانا العقاد وهو من هؤلاء ووفق ما جاء فى هذا الكتاب كانت عبارة عن مجموعة من الأرقام ارتبط بها وارتبطت به، وذلك منذ فجر ميلاده وحتى فجر رحيله.

ولعبة الأرقام هذه قد بدأت بالفعل منذ الثامن والعشرين من شهر يونيه فى عام ١٨٨٩.. عندما سجل الحاج محمود العقاد

طفله عباس فى قسم صحة بندر أسوان بعد ميلاده بلحظات. ثم ظلت هذه اللعبة مستمرة حتى فرضت عليه الأيام بأن يعيش فى القاهرة فى المنزل رقم ١٣ بضاحية مصر الجديدة وأن يموت أيضا فى اليوم الثالث عشر من شهر مارس فى عام ١٩٦٤، وكانت المساحة الزمنية بين رقمى الميلاد والرحيل قد اتسعت حتى بلغت ما يقرب من ٧٥ عاما!.. وقد شهدت أحداثا عظيمة فى حياة هذا العبقرى.. تولد عنها كل ما تركه لنا من أعمال أدبية وفكرية متميزة لم تنته حتى برحيله.

وتقول لعبة لأرقام، إن العقاد بعدما ترك مدرسة أسوان الابتدائية.. والتحق بالوظائف الحكومية عاد واشتغل بالتدريس فى مدينة القاهرة، مع صديق عمره إبراهيم عبد القادر المازنى فى عام ١٩١٥.

وفى الفترة نفسها.. كانت موهبته الأدبية والفكرية قد بدأت تملك عليه نفسه فأخذ يكتب المقالات والشعر، ثم بدأت رحلته فى عالم الصحافة عندما كتب فى جريدة الظاهر ثم جريدة الأهالى بدءا من عام ١٩٠٤.

وفى عام ١٩٢٢ عمل صحفيا محترفا فى صحيفة البلاغ.. وقد سبق هذه الخطوة.. نجاحه فى انتخابات مجلس النواب فى عام ١٩٢٠.

ولم تترك الأرقام ولعبتها حياة العقاد، هادئة هانئة.. بل ظلت مربوطة فى عنقه حتى يوم رحيله.. حيث تطوع العديد من المؤرخين من أجل ترجمة هذه الأرقام فى حياة مولانا.. وذلك بخلاف ماذكرناه... فقالوا عن ذلك: لقد قرأ العقاد ما يقرب من ٦٠ ألف كتاب.. وكتب ما يقرب من ٥٩٠٠ مقال.. وأفضل ما قدمه من دراسات كانت دراسته عن ابن رومى التى نشرها فى عام ١٩٢١.. وكتب العقاد رواية واحدة وهى "سارة" ثم كتب أيضا قصصا قصيرة كثيرة. وقد ترك وراءه من بعد رحيله ٨٤ كتابا فى مختلف المجالات..

* * *

وشخصية عظيمة مثل العقاد.. بما اتصفت بالعديد من المتناقضات كانت كفيلة بالعيش فى صراع دائم اجتاح فكره وعقله ونفسه أيضا.. كما كانت كفيلة بجلب العديد من المتاعب الصحية والتى نجح كثيرا فى إخفائها.. حتى عمن حوله من التلاميذ والحواريين. وكان من أخطرها ولاشك إصابته وفى فترة مبكرة من حياته بمرض القولون.. أو المصران العصبى.. وهو مرض عادة ما يصيب معظم المشتغلين بالفكر وبالأدب..

وكان العقاد على علم بكل تفاصيل هذا المرض الذى عانى منه طويلا.. لكن الأطباء اكتشفوا أن العقاد كان مريضا أيضا بالعديد من الأمراض الأخرى وعلى رأسها كانت أمراض القلب التى كانت السبب الرئيسى وراء رحيله.. حيث مات إثر أزمة قلبية فى عام ١٩٦٤.

والمعاناة الصحية الطويلة التى لازمت العقاد لعشرات السنين من جراء إصابته المبكرة بداء المصران أو القولون العصبى، جعلته يتغاضى عن الاهتمام بأى أمراض أخرى حتى أمراض الشيخوخة التى بدأت تهاجمه فى سنوات عمره الأخيرة بحكم تقدم السن ووهن الصحة.!

ونستطيع أن نؤكد من خلال متابعة متأنية لحالات العقاد الصحية، أنه قد بدأ يدخل دائرة الأمراض العصبية بدءا من عام ١٩٣٠ عندما دخل السجن بتهمة العيب فى الذات الملكية.. وكان وقتها يعمل بجريدة المؤيد الجديد.. وقد أشارت بعض الصحف والمجلات الصادرة آنذاك إلى قسوة هذه التجربة فى حياة العقاد الصحية.. بالإضافة مما كتبه هو عن نفسه.. فقالت مجلة اللطائف المصورة فى ١٥ ديسمبر من عام ١٩٣٠ إن الكاتب الكبير عباس العقاد قد ساءت صحته أثناء اعتقاله رهن المحاكمة. على رغم أن العقاد كان يبلغ من العمر آنذاك ٤١ عاما فقط.!

وبرغم هذه التجربة القاسية. وبرغم معاناة العقاد الصحية فى هذه الفترة المبكرة إلا إنه لم يكن يهدأ أبدا.. بل واصل كفاحه الفكرى والسياسى. الأمر الذى جعله يؤجل الاهتمام بما كان يعانيه من أمراض.. حتى زحفت عليه السنون وتشابكت مع فترة الشيخوخة.. وقد اجتهد العقاد كثيرا من أجل إخفاء إصابته بالأمراض.. نظرا لما كان يتصف به من كبرياء وعناد.. بدليل أنه حين كتب لنا عن أحاسيسه بفترة الأربعينيات.. لم يحدثنا إلا عن ضعف بصره الذى لازمه منذ صباه.. وبرغم اعترافه بذلك لم يسمح لنفسه بارتداء النظارة إلا حين وصل لسن الخامسة والأربعين ثم الخمسين. وقد عرضه هذا العناد الذى صاحبه فى عدم استخدامه للنظارة الطبية لإجراء عملية جراحية فى عينيه.. تحت ضغط أوامر الأطباء الذين أشاروا عليه بضرورة إجرائها حفاظا على بصره.

وكذلك حين كتب لنا عن أحاسيسه وهو فى سن الخمسين والستين والسبعين.. لم يذكر صراحة ما كان يعانى منه من أمراض.. وكل ما فى الأمر أنه تحدث عن الشيخوخة وآثارها النفسية عليه وعلى كل كتاباته.. وقد كتب معبرا عن ذلك حين احتفل تلاميذه وأصدقاؤه بعيد ميلاده الستين فقال:

”لقد زادت قدرتى على البحث والدراسة ونقصت قدرتى على مواصلة الكتابة والقراءة“.

وعندما وصل إلى سن السبعين قال فى نفس السياق: ”وسأبقى معى فى السبعين كل ما يعين النفس على هجران الحياة إذا وجب أن تهجر، وهجرانها واجب يوم تستبقينى وأنا أسف للبقاء فيها“.

ويؤكد الأديب الراحل رشدى صالح أن العقاد فى هذا العمر المتقدم.. وبرغم حاجته إلى الرعاية الصحية.. إلا إنه رفض الانتقال إلى المستشفى إيمانا منه بأنه يعرف من أسرار جسمه ومرضه أكثر مما يعرف الأطباء!.. ليس هذا فقط، بل كان كثيرا ما يناقش بحدة هؤلاء الأطباء فى نصائحهم إليه.. وقد ظل هذا العناد ملازما للعقاد حتى قبيل الساعات الأخيرة من رحيله.. إذ رفض أن يعرف أنه مصاب إلى جانب ”المصران“ -كما كان يسميه- بأمراض القلب والشريان التاجى.. بل وأيضا بسرطان القولون.!!

ولعله كانت هناك العديد من الدوافع التى وقفت حائلا أمام اعتراف العقاد بأمراضه حتى وهو فى سن الشيخوخة.. وربما يكون من بين تلك الدوافع ألا يظهر أمام تلاميذه ضعيفا.. وربما

كانت هناك دوافع أخرى. كان يحسب لها ألف حساب.. دون أن يفصح عنها. أو يعرفها أقرب تلاميذه ومحبيه!

ولولا إحساس العقاد بالمشاكل النفسية والصحية لفترة ما بعد سن السبعين وما يصاحبها من أمراض، خاصة أمراض الشيخوخة لما أسف على البقاء لحظة واحدة بعد اجتيازها.. لكن الله قد أمد في عمره خمس سنوات أخرى إلى ما بعد ما تمنى.

وفي هذه السنوات الخمس.. عانى العقاد معاناة شديدة على مستوى الأمراض التي لازمته.. وعلى مستوى أمراض الشيخوخة أيضا.

ولعل استعراضنا لحالته الصحية قبيل رحيله بشهر واحد.. من خلال ما كانت تنشره الصحف آنذاك يبين لنا ذلك وأكثر منه.. ففي شهر فبراير من عام ١٩٦٤.. نشرت الأهرام عن حالة العقاد الصحية: "فجأة امتنع عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد- ٧٥ عاما- عن الاطلاع وقراءة الكتب منذ ٣ أيام عقب أزمة صحية شديدة ألمت به فأرقدته في فراش بيته بمصر الجديدة. وقد تحسنت صحته نسبيا وأن د. جمال بحيري سوف يعاوده اليوم!".

وقالت الأهرام عن صحة العقاد نقلا عن التقارير الطبية: "في عتمة ما بعد منتصف ليلة ثاني أيام العيد وأثناء نوم الأديب

الكبير، صحا على آلام مبرحة احتاحت جسده إثر تقلص شديد أصيب به فجأة مصرانه الغليظ..

ومع ضوء الفجر أسعفه الأطباء د. محمد ياسين عليان، ود. يوسف عز الدين، ود. موسى إبراهيم جمال.. ولأول مرة يرضى العقاد أن يعطى له الطبيب قرصا مخدرا لتخفيف آلامه، إذ كان يرفضها طوال حياته خاصة عندما انتابته هذه الأزمة مرتين من قبل. وكان السبب أيضا هو مصر نه الغليظ.

وكانت المرة الأولى عندما علم بمصرع النقراشى. وداهمته الثانية عند وفاة شقيقته.. وجاءته الثالثة إثر إرهاق، عندما بدأ العقاد يكتب مذكراته ومعها تاريخ مصر من بداية هذا القرن فكريا وسياسيا واجتماعيا وأدبيا.

وفى محاولة من كمال الملاخ كاتب الموضوع لتأهيل مرض المصران عند العقاد قال: وهذا الضعف فى مصرانه الغليظ ليس جديدا عليه.. فالعقاد يشعر به منذ ٣٠ عاما ولهذا فقد أخذ الحرص والاحتياط فالتزم رجيما خاصا فى حياته وفى طعامه الذى يجب أن يكون مسلوقا وبعيدا عن أى أطعمة ليفية!. واختتمت الصحيفة قولها عن ذات الموضوع: "ولكن خفت الأزمة ومازال العقاد ملازما لفراش حجرة نومه!".

ويبدو أن تلك الحالة المرضية العنيفة التى هزت كيان العقاد آنذاك كانت هى التى صورها الأديب أنيس منصور فيما كتب فيما بعد حين قال: "... وخرجت من عنده (أى من عند العقاد وكان يزوره فى بيته) ..لأجد د. ياسين عليان يصر على ضرورة أن يأخذ الأستاذ حقنة شرجية.. وصرخ قائلا: إذا لم يفعل ذلك فسوف يصاب بتسمم ويموت.. لابد وأن يقال له ذلك.. إذا لم تسمعوا كلامى فلماذا أتيتم بى إلى هنا؟!.. أنا أدخل وأقول له.. هذا أمر عجيب..

ودخل الطبيب قائلا: يا أستاذ لابد من حقنة شرجية.. لابد!

ووافق الأستاذ. ورفض أن يكون معه فى الغرفة أحد. ورفض أن يدخل ابن أخيه عامر العقاد أو أى أحد.. وأغلق الباب على الأستاذ. ولم نسمع بوضوح ما يقوله من لعنات وصيحات.

وبعد لحظات من الصمت الطويل. فتح الطبيب الباب لنجد الأستاذ قد تمدد على الفراش، وأسرع الطبيب يمسك يده.. ووضعها إلى جواره. وطلب إلى الخادم تنظيف الغرفة وترتيبها، ووضع اللحاف على جسم الأستاذ حتى يهدأ بعض الوقت".

* * *

وبعد رحيل العقاد.. أفصح لنا أنيس منصور أكثر عن حالة العقاد الصحية.. فكتب يقول عن تلك الحالة فى جريدة الأخبار.

بعد رحيل أستاذه: "فى الأسابيع الأخيرة شكا من مرض.. من تعب فى بطنه وشخصه العقاد بأنه المصران الغليظ، وهو مرض يشكو منه منذ ثلاثين عاما وبين الحين والآخر كان يصاب العقاد بتشنج فى مصرانه الغليظ وقد حدث له ذلك عدة مرات.

وجاء الأطباء واحدا بعد الآخر وعرض عليهم العقاد حالته.. وراح يصف لهم متاعبه من المصران وكيف كان يعالجه منذ ثلاثين عاما، وكيف أنه قرأ أقل شيء عن "المصارين" وعن المصران الغليظ بصفة خاصة.. وقد حرصوا الواحد وراء الآخر على الكشف عليه، وكان العقاد يقبل. ومعظم الأحيان لا يقبل.

فهو يعرف مقدما ما سوف يقوله الطبيب.

وطلب من العقاد تحليل للدم. وجاء مؤكدا وجود نقص فى الكريات الحمراء.. ثم استعاد العقاد هذه الكريات الضائعة.. ولكن الأطباء خشوا عليه من مرض آخر لايعرفه العقاد ولم يستطع أن يشخصه، فهم يخشون شيئا على قلبه، ولذلك طلبوا منه ألا يرهق نفسه وألا يبرح الفراش.

والعقاد مريض نموذجى.. وخشى بعض الأطباء أن يكون العقاد مصابا بالسرطان، وتهامسوا بذلك.. وبينما كان العقاد يعالج نفسه من المصران الغليظ ويؤكد للأطباء ويوجههم إلى

مرضه، كان يعانى فى نفس الوقت من شىء فى القلب.. من جلطة دموية وهى التى أودت بحياة الفقيد العظيم.

وكان فى نية العقاد أن يدخل أحد المستشفيات لإجراء العملية الجراحية التى يراها الأطباء، وهو يرى أن جسمه لن يتأثر بهذه العملية فهو لا يشكو من مرض السكر، وهو لا يشكو من القلب. وهو ليس مصابا بأى مرض يجعل إجراء العملية شيئا صعبا. وحتى إذا ذهب إلى المستشفى فسيضحى بالنظام.. وربما ذلك كان السبب الأساسى الذى جعله يهرب من المستشفى..

* * *

ويكمل أنيس منصور أخلص تلاميذ مولانا العقاد شهادته عن الأيام والساعات واللحظات الأخيرة فى حياة أستاذه.. فيقول: "ضبطت نفسى متلبسا بإحساس غريب.. فقد لاحظت أننى لا أريد أن أرى الأستاذ، ولا رغبة عندى فى الذهاب إليه.. واندهشت لهذا الشعور العجيب.. ولكن المعنى الذى اهتديت إليه هو أننى أحسست أن الأستاذ قد انتهى.. إن لم يكن قد مات فهو قريب من الموت، وليست له حاجة بأحد من الناس.. ثم إن الناس سواء تكاثروا حوله أو قل عددهم فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا له شيئا. بل إنه الآن لم يعد فى حاجة إلى طعام أو شراب

أو حتى هواء.. إنه أصبح غائبا، فهو لا يدرى من الذى جاء ومن الذى خرج.. ولم تعد تجدى كل لكلمات الحلوة التى تقال له.. فلماذا تذهب إلى الأستاذ الذى لم يعد هناك؟!..

وفى فقرة أخرى من هذه الشهادة قال أنيس منصور: لقد سمعت أستاذنا العقاد يقول فى أخريات أيامه.. إننى الآن أتراجع عن الدنيا.. أترجع حتى تبدو لى صغيرة ضئيلة وحقيرة.. إما أننى الذى أتراجع أو هى التى تنسحب، فالمسألة تكبر والأشياء تصغر. وسوف يظل إحساسى بهذه الدنيا هكذا مادمت أشعر ومادمت أفكر. وسألنى الأستاذ عامر العقاد قائلا: ماذا يقول لك؟! . قلت أنت تعرف.. فعقله لم يتوقف عن التفكير، وهو لا يستطيع أن يوقف عقله.. قال عامر العقاد: هل تعرف ماذا قال لى صباح اليوم؟ قال: يا عامر اقرأ صفحة الوفيات فى الأهرام.. واعرف لى كم عدد الذكور والإناث فقلت: ماتت امرأة واحدة، فضحك قائلا: واحدة!.. إن هذا كثير.. منذ أسبوعين قرأت الوفيات فلم أجد إلا رجالا.. ثم طلب منى أن أعرف نوعيات الذين ماتوا.. فلم أفهم. فعاد يقول لى: كم عدد المهندسين وكم عدد الأطباء؟ وكم عدد الفلاحين؟ وكم عدد التجار؟ وظللت ساعة أقلب فى صفحة الوفيات.

ويقترب بنا أنيس منصور أكثر وأكثر.. حيث اللحظات الأخيرة من حياة العقاد فيقول واصفا ذلك: ".. وفى الساعة الثانية صباحا.. نهض الأستاذ من فراشه وذهب حافيا إلى دورة المياه.. وهى أول مرة يجد نفسه قادرا على النهوض دون مساعدة!.. وأن يقف دون أن يتساند على الجدران. وأن يذهب إلى المخدة.. ثم جلس الأستاذ على المقعد المجاور إلى السرير، وحاول أن ينادى أحدا، ولكنه لم يستطع أو لم يرد ذلك.. ومدد ساقاه تحت السرير ووضع يده على جانبه الأيسر.. ومال بكل جسمه إلى اليسار.. وارتطمت يده ببعض الزجاجات فسقطت، فسمع أهله وأبناء أخيه ذلك، فسارعوا إلى غرفة الأستاذ واقتربوا منه ولم يجرؤ أحد أن يلمسه. وتقدم الأستاذ عامر العقاد. ولأول مرة فى حياته يلمس الأستاذ ويمسك يده.

فوجد القلب يدق ببطء شديد. وأسرع إلى التليفون. فطلب منه د.عليان أن يعطيه كورامين.. وكانت المرة الأولى فى حياة أحد من أقارب الأستاذ أن يقترب منه أكثر أو أن يلمس ذراعه أو عنقه أو رأسه ويقدم له دواء وهو يرتجف. فهو يخشى إذا صحا الأستاذ أن يغضب!!.. وجاء د.عليان بعد دقائق، وتقدم إلى الأستاذ. ومد يده يجس النبض. وخرج يبكى: البقاء لله...

مات الأستاذ! ولا أحد يعرف بالدقة ما الذى حدث بعد ذلك..

ويضيف الدكتور ياسين عليان طبيب العقاد الخاص عن الحالة الصحية للعملاق العظيم قائلا:

لقد سافر العقاد فى الشتاء الماضى ليمضى هناك شهرا كاملا فى أسوان كعادته كل عام، ولكنه لم يقض غير أسبوع واحد فقط! عاد بعده فى حالة نفسية شديدة السوء، وسألته عن حاله فقال:

ـ لقد عدت حزينا!

وعندما استفسرت منه عن السبب أكثر.. فقال:

ـ لقد سافرت لأستمتع بالشمس هناك.. فإذا بى أفاجأ بأنهم يبنون منزلا جديدا يقابل منزلى فحجب الشمس عنى!

وعلى أية حال.. لقد كان العقاد يعانى ويشكو فى أيامه الأخيرة من مرض القلب إلى جانب المصران الغليظ، وعندما حضر الأستاذ الدكتور محمد عطية وأجرى له رسما للقلب وطلب نقله إلى المستشفى وحاولنا إقناع العقاد بالذهاب إلى المستشفى لكنه رفض. واستعنا بأصدقائه ومن بينهم الأديب طاهر الجبلاوى ولكنه رفض قائلا:

ـ إذا كنت سأموت، فلن أموت إلا هنا فى منزلى وعلى فراشى وبين كتبى.

وبعد شهر واحد تقريبا من الأزمة الصحية الطاحنة التى مرت على حياة العقاد.. والتى عاصرها كل من طبيبه الخاص وتلميذه أنيس منصور.. وقعت الواقعة.. ورحل العملاق بالفعل عن عالمنا.. وكان لهذا الرحيل وقع الصاعقة على كل من كانوا حوله.. سواء من المتابعين لحالته الصحية أو من غير المتابعين لها.. وكانت لحظات رحيل هذا العملاق.. من أصعب لحظات الحياة على الكثير ممن كانوا حوله آنذاك.

وكان من أوائل أقاربه من الذين خفوا لنجدته ساعة سماعهم بنبأ وقوعه من فوق سريره لحظة الوداع الأخيرة.. عبد العزيز الشريف ابن خالة مولانا العقاد.. وقد صور لنا تلك اللحظات الصعبة حين قال:

"سمعنا العقاد يقول وكنا حوله.. اتركونى أنام.. فأنا أشعر الآن بالتحسن فى صحتى.. لقد قالها وهو يتمدد فوق سريره والضوء الخافت ينعكس على وجهه، ثم أغمض جفنيه لحظات.. وقبل أن ننصرف من حوله انطلقت حشرجة من فمه، ثم هدأ من بعدها مرة أخرى فانصرفنا وخرجنا من غرفة نومه.. الواحد تلو الآخر. ومضت دقائق قليلة. سمعنا بعدها صوت العقاد.. ولم نستطع أن نتبين جيدا ماذا يقول؟.. عندئذ أسرعت إلى غرفته

فوجدته يتقلب فوق سريره بعصبية وقلق. فأسرعت أكثر خطاى نحوه حتى أمنعه من الوقوع على الأرض.. ولكننى وصلت إليه متأخرا لحظات كان خلالها قد مال برأسه على المقعد الكبير الملاصق لسريره فأصيب فى جبهته. وأسرعت أرفع جسده بكل قوتى وتحسست يده. وكان نبضها ضعيفا جدا.

عندئذ أسرع عامر العقاد ابن شقيق العقاد والذى يعيش فى منزله بصفة دائمة واتصل بطبيبه الخاص محمد ياسين عليان. وقال الطبيب إنه سيسارع بالحضور فى خلال دقائق. وطلب إعداد حقنة كورامين حتى يصل.

ومضت دقائق قصيرة والعقاد يتمدد على السرير وملاءة بيضاء تغطى جسده. بينما كان عامر يقف أمام باب الشقة المفتوح انتظارا للطبيب الذى حضر وهو يلهث وخلع جاكته وهو فى طريقه لغرفة نوم العقاد وأزاح الملاءة البيضاء. ونظر إلى عينيه وأمسك يده. والتفت إلى ابن شقيق العقاد قائلا: البقية فى حياتكم!

وخرج من الغرفة يتهاوى هو الآخر.. ووقفت وسط غرفة مكتب العقاد. كان على مكتبه آخر كتابين طالعهما.. الكتاب الأول بعنوان "فى أعقاب الثورة المصرية" تأليف عبد الرحمن

الرافعى.. وكان قد توقف عند الصفحة [٥٥] والتى تحمل عنوانين: الأزمة الدستورية وإقالة الوزارة.. أما الكتاب الثانى، فهو "شعر من المهجر" تأليف محمد قرة على ولم يكن يقرأ صفحاته بطريقة منتظمة، وبين صفحات الكتابين كتب على ورقتين منفصلتين -بالحبر الأسود الداكن- ملاحظاته.. وتركت غرفة مكتبه.. فوقفت أمام باب قديم مغلق ومددت يدى المرتعشة لأفتح الباب. وأرى العملاق وهو ممدد على المنضدة الطويلة.. وكانوا فى هذه اللحظات يحنطون جسده قبل نقله إلى أسوان، ولأول مرة ألمح الهدوء يكسو وجهه برغم ذقنه الطويلة.. ساقاه ممددتان وقد علتهما صفرة شديدة، وراح طبيب الصحة يحقنه فى ذراعه.. ونظرت إلى وجه العقاد مرة أخرى، وجدته يشير برأسه إلى الأمام وبالذات إلى حائط الصالة التى كان يرقد فيها والتى لم يكن معلق عليها غير صورتين.. الأولى للإمام الشيخ محمد عبده.. أما الثانية فكانت للسيد جمال الدين الأفغانى، وكأنهما يبادلانه نفس النظرات.!

وبعد ساعة كاملة انتهى طبيب الصحة من إعداد جثمانه.. وعلى الفور أخرج شقيق العقاد أحمد محمود العقاد -وكانت الدموع فى عينيه- الصندوق الذى تم إعداده وقد تم تبطينه

بالصاج ليحمل جثمان العقاد من منزله رقم ١٣ شارع السلكان حسين بمصر الجديدة حتى نهاية الرحلة إلى أسوان..

وأما عم أحمد حمزة خادم وطباخ العقاد، فقد قال فى شهادته عن اللحظات الأخيرة فى حياة العملاق:

"لقد أعددت له بيدى آخر وجبة تناولها، وكانت من طبق به كفتة التى صنعتها له بالماء وطبق جيلى تفاح.. وفى ليلة الأمس ليلة الوفاء وبعد أن تناول عشاءه، قلت له: إننى أحس أنك متعب وأنا أريد الليلة أن أمضيها فى غرفتك وبجوار سريرك.. فرفض العقاد قائلا لى: أنت غلطان.. فأنا أشعر بتحسن فى صحتى، وغدا ستجدنى سليما جدا.. ثم طلب منى أن أسارع بترك الغرفة لأنام فى غرفتى فوق السطح، وقبل أن أغادر غرفته نبه علىّ بضرورة المجئ إليه مبكرا، كما تعودت منذ خمسة وعشرين عاما لأقدم له فنجان الشاى.. وفى الصباح الباكر نزلت إليه فى غرفته كعادتى.. ولكنه ولأول مرة وآخر مرة أخلف وعده معى!

* * *

ويوم رحيل مولانا عباس محمود العقاد.. قطعت إذاعة القاهرة برنامجها فى الساعة الثالثة من فجر يوم وفاته وأذاعت النبأ العاجل.. وكانت الإذاعة فى هذا الوقت تذيع نتائج الانتخابات!.

كما قام الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام آنذاك بزيارة عاجلة لبيت الرئيس عبد الناصر ليبلغه بنبأ الوفاة.. وكان من رأى عبد الناصر ضرورة نقل العقاد إلى المستشفى لعلاجه.. وفى خارج مصر دقت الكنيسة الفرنسية أجراسها فى الخامسة من عصر اليوم اللاحق للوفاة.. حدادا على عملاق الأدب العربى.. كما كان موكب تشييع جنازته بالقاهرة من قبل نقل جثمانه إلى أسوان مظاهرة مدوية تقدمها ١٥ باقة زهور ومجموعة كبيرة من تلاميذه.

* * *